الفصل السادس

أثر الثقافة على الشخصية

أثر الثقافة على الشخصية

هناك من يرى أن الشخصية لا تتكوّن إلا عن طريق التأثيرات الثقافية من خلال ما يمتصّه الفرد من مجمل عناصر الثقافة المجتمعية.. ومن ثم، يعتبرون الشخصية وليدة الثقافة، وأن شخصية الفرد صورة أخرى مقابلة لثقافة مجتمعه (**صالح محمد أبو جادو، ٢٠٠٤، ١٢٢**).

ويرون أنه من الصعب علينا تفسير سلوك الفرد ونمو شخصيته دون أن نُدخِل في الاعتبار البيئةَ التي نشأ فيها، وقد قسم لويس ثورب (١٩٦٥) البيئة إلى ثلاثة أقسام مترابطة بشكل وثيق وهي: البيئة الطبيعية، الثقافية، والاجتماعية.

وعلى ذلك، تختلف الشخصية الإنسانية في تكوينها، واتجاهاتها، وقيمها من ثقافة إلى أخرى حسب مكونات هذه الثقافة (في: **زينب عبد الرحمن القاضي، ٢٠٠١، ٦٧-٦٩**).

إن هؤلاء الذين يركّزون بشكلٍ بالغٍ على التأثير الأكبر لثقافة المجتمع في تشكيل وصياغة شخصية الفرد، ينتمون إلى المبدأ القائل بأولوية المجتمع على الفرد، وليس أولوية الفرد على المجتمع، أي المبدأ القائل بأن المجتمع سابق على الفرد، ويمكن أن نجد تعبيرًا لذلك في نظرية الشعوب والطابع القومي التي يعرض لها لطفي فطيم (١٩٩٥، ٧٣-٧٥) على النحو التالي:

سيكولوجية الشعوب والطابع القومي:

نشأت هذه الفكرة بوصفها شكلًا من أول أشكال نظرية علم النفس الاجتماعي في أواسط القرن التاسع عشر في ألمانيا منطلقة من مبدأ أولوية المجتمع فقالت بوجود «روح تعلو على الأفراد» ولا تكتمل إلا في وجود الأمة أو الشعب.. وقد برزت هذه الفكرة في ألمانيا

بالذات التي كانت مكونة من إقطاعيات وإمارات متفرّقة ونشأت فيها حركات تطالب بالتوحيد. ويعتبر الفيلسوف لازاروس (١٨٢٤ – ١٩٠٣) والعالم اللغوى شينتال (١٨٢٣- ١٨٩٣) هما مؤسّسو نظرية سيكولوجية الشعوب، ونشرا في عام ١٨٥٩ مقالًا بعنوان «تأملات تمهيدية في مسألة سيكولوجية الشعوب» وذلك في مجلة «سيكولوجية الشعوب وعلم اللغة» التي تأسست في نفس العام، وفي تلك المقالة صاغا الفكرة القائلة بأن قوة التاريخ الرئيسية هي الشعب أو «الروح الكلي» الذي يعبر عن نفسه في الفن، واللغة، والأساطير، والعادات...إلخ، أما الوعي الفردي فليس نتاجًا لذلك الوعي الجمعي، وتكون مهمة علم النفس الاجتماعي اكتشاف الجوهر النفسي لروح الشعب، والقوانين التي يتشكّل بموجبها.

وتطورت هذه الفكرة فيما بعد على يد فونت Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠) الذي يعرف بأنه مؤسس أول معمل لعلم النفس.. وقد صاغ فونت فكرته للمرة الأولى في عام ١٨٦٣ في «محاضرات عن روح الإنسان والحيوان» ولكنه بدء من عام ١٩٠٠ في تأليف كتابه الضخم ذي المجلدات العشر، والذي سماه «سيكولوجية الشعوب»، وفي المجلد الأول من هذا الكتاب تعرّض لتصنيف علم النفس، وقال إنه يجب أن يتألف من قسمين؛ هما علم النفس الفسيولوجي، وسيكولوجيا الشعوب؛ والأول يجب أن يدرس في المعمل بواسطة الاستبطان، غير أن المعمل لا يصلح لدراسة العمليات النفسية العليا كالتفكير والكلام، ولذلك يجب أن نبدأ بسيكولوجية الشعوب التي لا تستخدم فيها طرائق معملية، وإنما تقوم بتحليل منتجات الثقافة كاللغة والفن....إلخ.

وقد تخلى «فونت» عن مفهوم «الروح الكلي» غير الواضح، وجعل سيكولوجية الشعوب علمًا وصفيًّا، وأضفى عليه صفة واقعية بأن جعله يدرس اللغة والعادات والأساطير، ومع ذلك فإن الفكرة الأساسية وراء المفهوم عند لازاروس شنيتال وفونت هي أن التكوين النفسي للفرد ترجع جذوره إلى وعي الشعب، ولذلك فإن علم النفس يجب أن يحتوى بابًا خاصًا بدراسة تلك القضايا.. وأنه يوجد لدى الفرد إلى جانب الوعي الفردي شيء آخر يميز سيكولوجية الجماعة، أو الأمة.

وفي اعتقادنا أن فكرة سيكولوجية الشعوب هي الأب الشرعي للفكرة الحديثة المسماة بالطابع القومي، وهي فكرة ظهرت بشدة بعد الحرب العالمية الثانية خلال البحث عما سمي بالطبيعة العدوانية لدى الشعب الألماني، حيث ألقت تبعة إشعال الحروب ونتائجها الضوء على طبعٍ غالبٍ لدى بعض الشعوب وهو ما يدفعها إلى تلك الطبيعة العدوانية، أي أن أعضاء تلك الأمم لهم شخصية عدوانية.. والحقيقة أن هذه الفكرة لا ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية إذ يمتلئ التاريخ بمؤلفات حاول أصحابها استشفاف السمات الشخصية التي تميز جماعة، أو شعبة، أو أمة.

ففي عام ١٩٣٤ نشرت روث بنديكيث كتابها «أنماط الثقافة» (ترجم إلى العربية) وحاولت فيه التمييز بين نوعين من الشخصيات تمثل كلا منها حضارة معينة، وتتابعت بعد ذلك المؤلّفات التي سارت في هذا السبيل مستخدمة الاختيارات النفسية، والمتوسّطات الحسابية، والملاحظات، والمعايشة...إلخ، وأشترك رالف لينتون -وهو أنثروبولوجي- مع أبرام كاردينر -وهو محلل نفسي- في دراسة لما سموه بالتكوين الأساسي للشخصية، وأصدر بعدها كاردينر كتابيه المعروفين «الفرد ومجتمعه»، و «الحدود النفسية للمجتمع».

ولكي نوضح مفهوم الطابع القومي نقول إنه يحتوي على معنيين؛ الأول أنه مفهوم إحصائي يستند إلى توزيع سمة، أو سمات معينة لدى أعضاء أمة، وهكذا يمكن أن يقال إن الإنجليزي -في المتوسط- أكثر تحفُّظًا من الأميركي.. أما المعنى الثاني فيشير إلى أنماط من السلوك الاجتماعي لصيقة بشعب معين، فيقال مثلا إن النمط الاستبدادي يشيع بين أفراد مجتمع ما ينشئون في جو متسامح، أو في جوٍّ صارم.

ولقد بيّن «كلاينبرج» أن المعنيين واردان، وأنهما ليسا مستقلّين عن بعضهما البعض، فسمات الأفراد في أمة ما تساهم في تكوين نظامها الاجتماعي، كما أن النظام الاجتماعي يساهم في صياغة سمات أفراده.

ولعل أحد المصادر الكبرى التي ساهمت في نشوء فكرة الطابع القومي هو تلك الثروة من المعلومات الأثنروبولوجية التى جمعها الباحثون عن الشعوب البدائية، إذ يبدو أن تلك المعلومات تؤيد فكرة وجود فروق واضحة بين طبيعة تلك الشعوب، ولكن يجب ألّا يغرب عن البال أن تلك المجتمعات صغيرة العدد ومتجانسة، وهي بالتالي تختلف اختلافًا كبيرًا عن أمم عالم اليوم، وليس من المأمون أن نستخرج منها تعميمات نطبّقها على الأمم الكبرى. فالأمم في عالمنا هذا كيانات كبرى معقّدة التركيب، وغير متجانسة إلى درجة عظيمة، وتتكون من جماعات متعددة داخل مجموع السكان؛ ولذلك فالاحتمال الأكبر أن توجد فروق هامة بين طبائع تلك الجماعات، بل وقد تكون تلك الفروق أعظم وأكبر من تلك التي توجد بين الأمم المختلفة.

ورغم ذلك فقد حاول بعض الباحثين إثبات وجود طابع قومي لدى الشعب الألماني مثلًا فيقول «بركنز» إن هناك صفة لدى الشعب الألماني عامة سمّاها البارانويا الثقافية، ويقول

«جورر» إن الشعب الياباني عدواني، ويرجع ذلك إلى طبيعة التنشئة الاجتماعية الجامدة للطفل، إلا أن هذه الدراسات لم تسلم من النقد، ولذلك فإن الرأي السائد الآن هو أنه توجد فروق بالفعل في الطابع القومي بين مختلف الأمم وبين مختلف الجماعات داخل الأمة الواحدة، ولكن مع افتراض وجود تلك الفروق فلا يوجد ما يقال بشكل حاسم عن طبيعتها المحددة ولذلك فقد قَلَّت -أو كادت تنعدم- الدراسات التى تبحث في هذا المفهوم (**لطفي فطيم، ١٩٩٥، ٧٣-٧٥**).

ولعل موضوع علاقة النمط الثقافي بالنمط الشخصي لا يتم إلا بتناول كتابات روث بنديكيت Ruth Bendict.

يتضمن كتابها الأنماط الثقافية Patterns of Culture أفكارًا مهمة، منها أن كل ثقافة تحتوي على أنماط ثقافية تنطلق من توجّه ثقافي عام يحدد المعالم الثقافية للجماعة، وبناء عليه تختار الجماعة -بما يتفق مع ثقافتها- سمات شخصية تشكل المثل أو النموذج الشخصي الذي يعبر عن النمط الثقافي السائد لدى الجماعة، والنتيجة تشابه عام، ليس في التوجّه الثقافي العام للجماعة فقط، وإنما في البناء الشخصي للأفراد. قد يكون هذا صحيحًا إلى درجة معينة في المجتمعات البسيطة، ولكن يصعب القول به في حالة المجتمعات الحديثة لما يحتويه بناؤها الثقافي والاجتماعي من تباين.

أقامت بنديكيت مقولتها بناء على دراستها لثقافات ثلاث هي، الدوبون في جنوب الهادي، والزوني في نيومكسيكو في الولايات المتحدة، والكاليوتيك فانكوفر في كندا.

وقد ظهر من نتائج الدراسات: أن لكل من هذه الجماعات القبلية نمطًا ثقافيًا أساسيًا، وأنها تحاول إنتاج النمط الشخصي الموازي له. فالدوبون، يمثلون النمط الديونيزوسي الذي

يتصف بالشهوانية والغدر والعنف، أما الزوني، ونموذجهم أبولو، فيمتاز بالاتزان والمسالمة، بينما يتّصف الكاليوتيك بنموذج البرانويا، ومن سماته الشعور بالعظمة والاضطهاد والريبة، يخشون الاستهزاء، ولا يملون إلى المفاخرة. كل من هذه الأنماط الشخصية يرتبط بالتوجه الأساسي للثقافة التي تحتوي على وسائل تحقيقه وتعزيزه بالطقوس، والشعائر، والسلوك والجزاء، والعقاب.

هل يمكن -بناء على ما جاء- وجود نمط شخصي على المستوى القبلي؟ أو القول بإمكانية وجود نمط شخصي على مستوى المجتمع الحديث؟ أي هل يمكن أن نتحدث عن شخصية وطنية؟ لابد لأي مجتمع من حد أدنى من الأسس الثقافية المشتركة، وليس بعيدًا عن الصحة القول أن لكل مجتمع منطلقات وتوجُّهات ثقافية عامة، ولكن وجود هذا المشترك لا ينفي وجود التباين، وبهذا تبحث مسألة الشخصية الوطنية من خلال المشترك، والتباين، فإذا غلب التماثل والتجانس الثقافي أمكن سحب هذا على النمط الشخصي، أما إذا كان التباين هو السمة الغالبة، فيصعب القول بإمكان قيام نمط شخصية وطنية.

الذي يقرر مثل هذا، ليس ما نعتقد، وإنما ما ينتج عن الدراسات الميدانية العلمية. ولقد حاول البعض التحدث عن نمط شخصي يرتبط بنوعية البناء الاجتماعي الثقافي، كما جاء هذا في كتابات ديفيد ريسمان David Riesman (إبراهيم عثمان، ١٩٩٩، ١٨٨-١٨٩).

سؤال كبير

وهو مرتبط بالقضية، محل النقاش: أثر الثقافة على الشخصية.. يرى وليم لامبرت وولاس لامبرت، في كتابهما علم النفس الاجتماعي ترجمة سلوى الملا (١٩٩٣) أن هناك ثلاث طرق تتصل بها الشؤون الاجتماعية النفسية بالشؤون الاجتماعية الثقافية، وبشكل رائع يعرضا على النحو التالي:

تقول إجابتنا الأولى ببساطة (إن العلميات الاجتماعية النفسية غالبًا ما تتوقّف على حدوث العمليات الاجتماعية الثقافية الأكبر، وتتداخل معها) فإذا حدث تغيير في القانون المتعلّق بالدمج العنصري في المدارس العامة (وهو حدث اجتماعي ثقافي)، فإن الكثير من الاتجاهات تتغير، إما في نفس الوقت، أو بعد ذلك، وتتشكل الكثير من التعارفات، وتتغير التنشئة الاجتماعية للكثير من الأطفال، والراشدين، وتنشأ منظورات جديدة في الحكم على الأحداث الاجتماعية، وتبرز جماعات، ومعايير جديدة.. وتبدو هذه العمليات الاجتماعية النفسية متداخلة في مجرى العملية الاجتماعية الثقافية الضخمة لتغيير القانون. ولا ريب أنه من المفيد غالبًا النظر إلى الوقائع الاجتماعية النفسية على أنها ناجمة، ومتداخلة في الأحداث الواسعة المشتركة التي يدرسها علماء الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والاقتصاد والسياسة (ص٢١٦).

ومع ذلك فهناك إجابة ثانية على سؤالنا. وهذه الإجابة هي أن الأحداث الاجتماعية الثقافية الكبرى يمكن أن تفهم بصورة أفضل إذا نُظر إليها كعالَمٍ مُكبَّرٍ للعمليات الاجتماعية النفسية.

فغالبًا ما يكون الحديث عن وقوع الأحداث الاجتماعية الثقافية الضخمة مجرد وسيلة للحديث عن تجمُّعات لأحداث اجتماعية نفسية متنوّعة أصغر؛ أي أن المادة نفسها التي تتألف منها الأحداث الاجتماعية الثقافية غالبًا ما تكون اجتماعية نفسية، مثل ما يحدث عندما يعكس العمل التشريعي تغيُّر الاتجاهات، والإدراكات الاجتماعية للشرعيين، أو القضاة، وعندما يتوقّف تنفيذ القانون الجديد على العادات والقيم البطيئة يحدث التغير لدى المواطنين ورجال الشرطة والدبلوماسية والساسة، وهي أيضًا التفاعلات المعقدة للأشخاص والاتجاهات..

والنمو الاقتصادي يتوقف على تغيير اتجاهات وقرارات الناس: وغالبا ما تكون الاختراعات والثورات نتائج للإدراكات الاجتماعية أو الاتجاهات الجديدة عند عدد صغير من البشر ذوي الفاعلية (ص٢١٧).

ويؤدي هذا بنا إلى إجابة ثالثة على سؤالنا الكبير، فالعمليات الاجتماعية النفسية مهمة من الناحية السببية كأحداث وسيطة للعمليات، والأحداث الاجتماعية الثقافية، أو تعمل على دمجها؛ ويمكن لهذه الإجابة الثالثة أن تكون مهمة سواء أكنا نعتقد بأن المجتمع والثقافة مصنوعان من مادة اجتماعية نفسية أم لا، (ص٢١٨) ويمكن النظر إلى العلاقة بين ما هو اجتماعي ثقافي وما هو اجتماعي نفسي مستخدمين المثال التالي:

ولنستخدم قضية حقوق المرأة كمثل معاصر لنظهر العلاقة بين الأحداث الاجتماعية الثقافية، والأحداث الاجتماعية النفسية؛ فإذا لم يحدث تغيير في الاتجاهات، والعادات الراسخة نتيجة لقرار مجلس الشيوخ بتجريم التفرقة في معاملة النساء في أميركا، فإن تنفيذ هذا القرار سيظل بطيئًا، أو منعدمًا.. وتغيير العادات، والاتجاهات أمر حيوي من الناحية السببية في هذا التغيير الاجتماعي (وربما في كل التغيرات الاجتماعية): إن تغيير الاتجاهات، أو عدم تغييرها يسهّل أو يعطّل العملية الاجتماعية الكبرى المنتظرة (ص٢١٩).

ويبدو أن هذه الإجابة الثالثة على السؤال الكبير هي أكثر الإجابات مدعاة للرضا. فعلى الرغم من أنها تعترف بالكثير من الصواب الكامن في الإجابات الأخرى، إلا أنها تستبعد الفكرة القائلة بأن العمليات الاجتماعية النفسية هي دائمًا نواتج فرعية للعمليات الاجتماعية. كذلك فإن هذه الإجابة الثالثة تعترف بأن العمليات الاجتماعية النفسية غالبًا ما تتداخل مع العمليات الاجتماعية الثقافية أو تكون ناتجة عنها، وهي تعترف أيضًا بأن العمليات أو

الأحداث الاجتماعية النفسية، من جرّاء ارتباطها السببي بالأحداث الاجتماعية الثقافية. قد تكون حلقة ربط بين جوانب العالم الاجتماعي الأكبر أو تعمل على دمجها (٢١٩).

تشكيل الثقافات للواقع

- **تتشكل الدوافع في أشكال متباينة تبعًا لتباين الثقافات.**

أ- في السلوكية الواطسونية ترتبط الاستجابة بالمثير عن طريق التشريط.

وفي النظرية الماركسية نشكل الدوافع بالرجوع إلى الطبقة الاجتماعية للأفراد والطبقات الاجتماعية، هي نتاج العلاقات الإنتاجية.. أى نتوقف على قوى الإنتاج.

ب- في نظريات الإنثروبولوجيا الثقافية يتجه كاردينار إلى الفنيات الخاصة بالمجتمع في التنشئة بينما يهتم (إريك فروم) بالوالدين كعملاء للثقافة لهما فهمها الخاص والذي من خلاله ينشئان الطفل.

أما (كلاك هون)، و(موراي) فيأخذان بالعلية الشبكية (عوامل وراثية جيلية بيئية خام ومعدلة، وسكانية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية، وأدورايه، ومواقف الخبرة الفردية).

جـ- يتضح من دراسات (مارجريت ميد) أن الرجولة، والأنوثة نفسيهما لا تستندان إلى الأساس التشريعي، بل تتجدد دلالة كل منهما بالرجوع إلى ثقافة المجتمع.

فالقيم الثقافية في كل مجتمع تحدد للذكورة دلالتها، وللأنوثة دلالتها، بحيث يتكاملان معًا في مسايرة لموقف إنسان هذا المجتمع من الطبيعة بأحيائها، وأشيائها، فقد قامت بتعميم التصوّر الفرويدي عن الموقف الأدبي، فلم يعد هو النمط الوحيد، بل أصبح انتشارًا يميز علاقة الطفل بالوالدين في الحضارة الغربيّة، بينما توجد تشكيلة من الانتشارات الأخرى الممكنة لهذه العلاقة.

هناك النضج الجنسي الباكر، وتبعيّة الطفل إزاء الوالدين، وتتجدد هذه العلاقة في تشكيلة من الانتشارات العيانية المتباينة بتباين الثقافات والظروف البيئية المحيطة، فكلها تجيب إجابات نوعية متباينة على الدوافع.

فعلاقة الأطفال بالأطفال.. وعلاقة الأطفال بالوالدين، والكبار، وعلاقة الأزواج بالزوجات، وعلاقة الكبار بالطبيعة.. كلها أجزاء عضوية تتكامل في وحدة ثقافية اجتماعية واحدة تجيب إجابات فردية على نفس المشكلات، أي مشكلات الحياة البشرية بدوافعها. (صلاح مخيمر، ١٩٧٩، ص ص ٢٥٠ - ٢٥١)

دراسات ثقافية مقارنة:

تكمن أهمية الدراسات الثقافية المقارنة في كشفها عن الفروق من السلوك، والعمليات العقلية، والعمليات الانفعالية بين الجماعات الثقافية المختلفة، أو بين الجماعات الثقافية الفرعية والتي تنتمي إلى ثقافة واحدة. (محمد عودة الريماوي، ١٩٩٤، ٢١٣)

وسوف نعرض فيما يلي لنماذج من دراسات ثقافية مقارنة، يمكن أن تلقى الضوء على متغيّر الثقافة بوصفه مفسرًا للفروق بين الجماعات الثقافية المختلفة.

١ - السلوك الذكري، والأنثوي بين قبائل أفريقية (ماجريت ميد Margrit Mead):

قامت الأنثروبولوجية الشهيرة «مارجريت ميد» بدراسة لثلاثة قبائل أفريقية في غينيا بيا والجديدة لتبين مدى تأثير الثقافة في تشكيل كل من السلوك الذكري، والأنثوي عند هذه القبائل وهي:

الأراييش:

يتصف الرجال، والنساء بالسلوك الأنثوي، فهم يميلون إلى المساءلة والتعاون، ويستجيب الواحد منهم لطلبات الآخر. قمة السعادة عندهم زواج الرجل اللطيف من المرأة اللطيفة، وأن كلي الجنسين عاجز عن أمره أمام إغراء الدافع الجنسي.. مما يدعو الأبوين إلى أن يحذروا الأبناء الذكور أكثر من البناء من أن يقيموا علاقات غرامية مع الفتيات، والفتيات هن اللاتي يتخيّرن الرجال للزواج.

المونداجمور:

عند هؤلاء أدوار الرجال والنساء مخالفة تمامًا لأدوار الأراييش، يتصف الرجال والنساء بالسلوك العدواني، وقمة السعادة عندهم عند زاوج الرجل العدواني من المرأة العدوانية العنيفة. وأن الملاطفة الجنسية بين الجنسين التي تسبق الزواج عادة يسودها العنف، والعدوان.

التشامبولي:

يتصف الرجال بالاتكالية، وقلة الشعور بالمسؤولية، حيث تتصف النساء بالميل إلى السيطرة، سلوك الإناث عند التشامولي مشابه للسلوك الذكري في الثقافات الأخرى، فالرجال هم الذين يتزيّنون للنساء، وفي الرقصات يلبس الرجال أقنعة النساء.. الرجال هم سادة الأسرة ومالكو الزوجات من الوجهة الاسمية فقط. في حين أن المادة والملكية والقوة الفعلية تتركز في أيدي الزوجات (فهمي سليم العزوي وآخرون، ١٩٩٧، ص ص ١٩٢ – ١٩٣).

٢- ردود الفعل نحو العنف في أيرلندا الشمالية:

أيرلندا الشمالية كما هو معروف بلد يجتاحه العنف منذ قرون، وازدادت الحالة تفاقمًا في السنوات الأخيرة، فما بين (١٩٦٩، ١٩٧٦)، قُتل أكثر من (١٥٠٠) فرد، وجُرح ما لا يقل عن (١٧٨٠٠) فرد آخر.. هذا الوضع دفع بوليم ميرسير (W. Mercer) ومعاونيه إلى دراسة ردود فعل طلبة أيرلندا الشمالية على الاضطرابات التي تعصف بالبلد؛ وذلك بمقارنتهم بمجموعة من طلبة جمهورية أيرلندا الجنوبية المستقلة. كشفت نتائج هذه الدراسة عن وجود درجة أشد من الخوف والقلق بين الطلبة الأيرلنديين الشماليين، كما لوحظ وجود ظاهرة الانسحابية بين الرجال، وانتشار المشاعر العدائية بين النساء، من ناحية أخرى وجد أن أثر الدين على ردود أفعال الطائفتين البروتستانتية، والكاثوليكية كان ضئيلًا جدًّا، فكلا الطائفتين تعطي نفس ردود الفعل بالرغم من اختلافاتهم الدينية التي تذكّي الصراع فيما بينهما (محمد عودة الريماوي، مرجع سابق، ٢٢٠).

٣- دراسات مارجريت ميد (M. Mead)

هدفت هذه الدراسات إلى المقارنة بين الثقافة الأمريكية والثقافة في ساموا (Samoa) حول ما عرف بأميركا باسم «أزمة المراهقة العنيفة»، وانطلقت هذه الدراسات من مُسلَّمة مفادها: (أنه إذا كانت أزمة المراهقة وظيفة للتغيرات البيولوجية، فلابد أن تظهر في جميع المجتمعات الإنسانية بصرف النظر عن الاختلافات الثقافية، وإذا كانت هذه الأزمة وظيفة للاختلافات الثقافية فلابد أن تتغير بتغيرها).

حددت الباحثة المظاهر الكبرى للثقافة الساموية بواسطة خطط إثنولوجية معيارية خاصة عن طريق مقابلات (بلغة المواطنين) وكذلك بالملاحظة تحت ظروف مختلفة، وقد

جمعت المعلومات من كل بيت في ثلاث قرى منتخبة عن المركز والثروة وصلة القرابة بالبيوت الأخرى. ولدراسة سلوك المراهقات بصفة خاصة أخذت جميع الفتيات بين (٩) و (٢٠) سنة في القرى الثلاث، وبلغ عددهن ٦٨ فتاة، عقد معهن مقابلات معيارية وطبقت اختبارات بسيطة وقوائم تتعلق بالخبرات الفردية والاتجاهات.

كشفت نتائج هذه الدراسة أن أزمة المراهقة قليلة الحدوث جدًّا وقليلة العمق في ساموا. وعليه فإن هذه الأزمة هي محصلة للثقافة (محمد عودة الريماوي، ١٩٩٤، ١٨١-١٨٢).

٤- دراسة Dodd:

هدفت هذه الدراسة إلى اختبار الأشكال المختلفة للتنبيه الاجتماعي المتعلق بالعقيدة الدينية. تكوّنت عيّنة الدراسة من ١٧٠ طالبًا في جامعة سوريه بالولايات المتحدة، يمثّلون (١٥) قومية و (١١) مذهبًا دينيًّا. وقد سجّل كل مفحوص اتجاهاته إزاء أعضاء جماعات تختلف عنه دينيًّا، وقوميًّا، واقتصاديًّا، وتعليميًّا.

من بين النتائج أن أشد التغيرات في البعد الاجتماعي (في الاستعداد لتقبُّل أعضاء من الجماعات الأخرى) كانت بين الجماعات الدينية. ويُشير الباحث إلى سيطرة القومية الدينية في الشرق الأوسط. وكانت الميول المسيطرة على الأفراد مرتبطة بشكل مباشر بحالتهم الاجتماعية كأعضاء جماعات دينية. (المرجع السابق، ١٨٢)

وأحد الأمثلة الهامة عن العلاقة بين الثقافة والأنماط المرضيّة، ما نجده في الدراسات التي قام بها سنجر وأوبلر Singer and Opler (١٩٥٦، والتى وضعها أوبلر أيضا ١٩٥٩) عن مميزات الشخصية والأعراض المرضية التى لوحظت على المرضى بالفصام من

الأميركان الأيرلنديين، والأميركان الإيطاليين.. والفصام هو أخطر وأكثر الأمراض العقلية انتشارًا. وقد قام سنجر وأوبلر الدقيق، عن طريق الملاحظة، ودراسة تاريخ الحياة، واختبارات الشخصية، لـ٦٠ من الذكور مرضى بالفصام بإحدى المستشفيات العقلية بمدينة نيويورك ممن تقع أعمارهم بين ١٨ - ٤٥ سنة؛ وكان نصف المرضى من الأميركان الأيرلنديين، ونصفهم الآخر من الأميركان الإيطاليين، وكانوا جميعًا أميركان تتراوح إقامتهم بين الجيل الأول والجيل الثالث.

وكانت المجموعتان من الكاثوليك المتشابهين في التربية والمستوى الاجتماعي والاقتصادي دخلوا المستشفى تقريبًا في نفس الوقت. وعلى ذلك فالشيء الهام الوحيد الذي يختلفون فيه هو أن وطنهم الأصلي هو أيرلندا أو إيطاليا.

وكان اختيار المجموعات العنصرية الأيرلندية والإيطالية من أجل المقارنة يستند إلى معرفة واضحة بوجود فروق معيّنة بينهما في بناء الأسرة والقيم الشخصية، وهي فروق قد تنعكس في الأسلوب المحدد الذي قد تعبر به أعراض المرض العقلي الخطير عن نفسها. فمثلًا تقوم الأم في الأسرة الأيرلندية بدور مسيطر ومتحكّم، على حيث يسيطر الأب في الأسرة الإيطالية وتذعن له الأم. أضف إلى ذلك أنه في المحيط الأيرلندي، يخضع النشاط الجنسي لهدف الإنجاب، وتكون المغازلة الجنسية لطيفة، وتمتد في الزمن كما يتأخّر الزواج كثيرًا، وتشجع العزوبة، وتعتبر المشاعر الجنسية أساسًا كخطيئة، وهي مصدر شعور بالذنب. وعلى العكس من ذلك، فإن الجنس في المجتمع الإيطالي جزء متقبّل في الحياة، وهم يميلون إلى غرسه كجزء من تأكيد الذكورة الصحية عند الفرد. وباختصار، فإن الثقافة الأيرلندية تؤكّد بوضوح كبت وإرجاء الإشباع الجنسي، وسيطرة الأم على الأسرة، بينما في الثقافة الإيطالية

نجد التعبير الصريح عن المشاعر مع سيطرة الذكر على الأسرة؛ وعلى أساس هذه الفروق الثقافية توقّع سنجر وأوبلر وجود فروق ملحوظة في نمط الانفعال الذي يُعبر عنه المرضى بالفصام من الأيرلنديين والإيطاليين.

وقد وُجِدت بالفعل فروقٌ ملحوظة في الأعراض المرضية تتسق والفروق في الثقافة. فالمريض الأيرلندي كان أكثر كبتًا وتأثرًا بالقلق والشعور بالذنب، بينما كان المريض الإيطالي أكثر تعبيرًا من الناحية الانفعالية. أضف إلى ذلك أن الفصامي الأيرلندي كان أكثر شعورًا بالعدوان تجاه الصور الأسرية الأنثوية، ولكنه يتحكّم فيه إلى حد بعيد، بينما يميل المريض الإيطالي إلى أن يكون أكثر صراحة في التعبير عن عدوانه، ويوجه هذا العدوان نحو الصور الوالدية الذكورية. وقد كان إدمان الخمر من الأعراض الملاحظة بكثرة لدى الأيرلنديين، على حين كان نادرًا للغاية لدى الإيطاليين.

ومن هذه الأمثلة السابقة، يتضح أن الشخصية (على نحو ما كشفت عنها أنماط المرض النفسي) وثيقة الارتباط بالمحتوى الثقافي الذي ينشأ فيه الفرد. (ريتشارد س. لازاروس، مرجع سابق، ص ١٩١- ١٩٣)